النظارة الشمسية

خرجَ (حسن) منَ البابِ يُهرول مُسرعًا، وطرَقَ بابَ جَاره الأستاذ (سيِّد)، فقد اعْتادَا أَن يَذْهبا معًا لِصلاة الجُمعَة كُل أُسبوع، وتَبقَّى على الأذَان مَا يقاربُ النِّصف ساعة، المسكين العجوز رحل عنه أَبناؤه الثلاث، كلٌّ منهم في بلدٍ، وتركوه وزوجته يصارعان فيما تبقَّى لهما من الحياة، ومنذ رحلتْ زوجته قبل شهور، وهو يرعاه، يهتم به، يمر عليه كل يومٍ، بعد عودته من العمل؛ ليرى إنْ كان يحتاج لأمرٍ أو طلبٍ.

فتح (سيد) الباب، وهو يبتسم قائلًا:

ـ أهلًا يا ولدي، أنا جاهز.

رد عليه (حسن) :

ـ جمعتك طيبة يا عمّاه، هيّا بنا حتى لا نتأخر عن الصلاة.

أقفل العجوز الباب، وهو يَحمِل في يده الكرسي الصغير الذي يصلي عليه، فأسرع (حسن) يَحمله عنه، ويمد له يده الأخرى حتى يستند عليها.

في الحقيقة.. (حسن) شاب مغترب، مجتهد، قادم من الغربية للقاهرة، طلبًا للعلم والرزق، يعمل في شركة صغيرة في قسم الحسابات، ويحضر في ذات الوقت الدراسات العُليا بالجامعة، ومنذ استقر في شقته الإيجار، أصبح يرى في (سيد) أباه الذي حُرم منه في طفولته، فيحنو عليه ويرعاه، وكأنه يعوّض نفسه هذا الشكل من العطاء، اتجها إلى سيارة (حسن) الصغيرة من نوع «الفيات»، قد تبدو لمن يراها متهالكة، أكلها الصدأ، ولكنها في نظره عزيزة دائمًا تفي بالغرض، ركبا في السيارة، وانطلقا إلى «الجامع الكبير»، هذا اسمه، أكبر الجوامع في المنطقة السكنية، جامع ضخم يأتي الناس إليه من كل حدبٍ وصوبٍ، وبالذات في المواسم والمناسبات الدينية وأهمَّها الجمعة، وصلَا إلى محيط الجامع، فركن (حسن) سيارته، ونزل يساعد عمه العجوز حتى يلحقا بالصلاة، صعدا درجات الجامع، وفي الصحن أدار (حسن) عينيه حتى ارتأى مكانًا مناسبًا، وضع فيه الكرسي للعجوز بجوار عمود من أعمدة المسجد، وأجلسه عليه قائلًا:

ـ هنا.. تفضَّل يا عمي.

ابتسم له (سيد) موافقًا، وهو يلهث من صعود درجات السلم، فصحن الجامع على ارتفاع، ما أنْ هدأ حتى أشار لـ(حسن) أنْ يُحضِر له نسخة من كتاب الله ـ تعالى ـ، أحضرها (حسن) وجلس كلاهما يقرأ القرآن حتى أذّن المؤذن، ثم أقام الإمام الصلاة، ووقف على المنبر يلقي الخُطبة الأولى على المصلين، كان (حسن) يتصبب عرقًا، فالجو شديد الحرارة، والمسجد بمساحته الكبيرة غير مكيَّف، وأعداد المصلين في ازديادٍ، أتمّ الإمام الخطبة الأولى، والتي تناول فيها أخلاق الإسلام، التي

يجب أنْ يتحلى بها المسلم في معاملاته المجتمعية، ثم خطب الثانية، وكانت عن أوضاع المسلمين في كل البلاد، كانتا خطبتين ثريتين؛ لمَن ألقى على قلبه السمع، فلما أتمهما، دعا للمسلمين في كل مكانٍ ونادى في جموع المصلين للصلاة، نهض (حسن) وهو يمسح عن جبينه قطرات العرق، وبدأ في التحرك انتظامًا للصفوف، واستقر في الصف الثالث خلف الإمام، فلما انتظم واقفًا، ألقى نظرةً على عمه العجوز فوجده مستقرًا على كرسيه، أومأ له أنِ اطمئن، اعتدل (حسن) في وقفته، واستشعر أنه أمام رب كبير وعظيم، وركز عينيه على موضع السجود استعدادًا للصلاة، كبَّر الإمام وبدأ الصلاة، في أول ركعة قرأ ما تيسَّر له من سورة الأعلى، فلما قضاها رفع حسن بصره استعدادًا للركوع، فوقَع بصره على شيءٍ غير معتاد.. شيء لفَت انتباهه، لقد شاهد أحد المُصلين في الصف الثاني يترنَّح وكأنه يفقد الاتِّزَانَ، ثم في ثانية سقط على الأرض، أصاب (حسن) الهلع والخوف:

ـ ما هذا؟

لمْ يتردد أبدًا، وقطَع الصلاة، وأخذ بضع خطوات ليطمئن على الرجل المُلقَى بين المصلين.. فإذا به شاب في مثل سنه سقط على جنبه الأيمن فاقدًا للوعي، أخذ يحرِّك يديه ووجهه يمنيًا ويسارًا، فلمْ يجِد استجابة، تساقطت مِن (حسن) قطرات العرق، وهو يلتفت حوله ليدرك المكان والحدث، إنَّه في المسجد ووسط المصلين.. ما هذا؟ ما الَّذِي يراه؟ لمْ يقطَع أحد صلاته سوى الرجل الذي سقط عليه الشاب.. ماهذا؟ أخذ ينادي بصوتٍ مرتفع:

ـ أيها الناس.. طبيبًا.. إسعافًا.

لمْ يُجِبه أحد... فالجميع يصلي

كرر القول وهو يحاول إسعاف الشاب الملقَى على الأرض، فردَّ عليه هذه المرة الرجل الذي بجواره في فزعٍ:

ـ أنا لستُ طبيبًا.

نظر إليه (حسن) في ذهول، ثم دار ببصره بين الجموع.. الكل يستكمل الصلاة.. رغم صوته العالي وصداه الذي سرى في المكان.. لمْ يَقطَع أحدًا صلاته، ولا حتى الإمام.. أدار بصره للشاب فوجده أحمر كَالمُخْتَنِق.. رفع نظارة الشاب الشمسية عن رأسه، وأماله قليلًا، وحاول إسعافه.. لكن لا شيء.. ثم جاءه الخاطر فجأة.. فأسرع يركض خارجًا من المسجد.. ارتدى حذاءه وهو يتذكر أنَّ مشفًى عريق الاسْم والشهرة يقبع في ناصية الشارع، وبالتأكيد به إسعاف وأطباء.. ركض سَريعًا.. بسرعة لمْ يعهدها في نفسه.. ركض وكأنما شبحًا خلفه، والعرق يتصبب منه، وأنفاسه تكاد تنقطع.. لمْ يتوقف حتى وصل إلى مدخل الطوارئ فوجد به سيارتين للإسعاف.. حمد الله في جوفه، وأسرع للداخل فإذا بممرضٍ أمامه يَنظر له في هدوء، ويقول:

ـ نعم!

التقط (حسن) بضع أنفاسٍ، وهو يجيبه:

ـ شاب سقط منّا في الجامع أثناء الصلاة فاقدًا للوعي، لا أعلم ما به، وأنفاسه منقطعة.

رد عليه الممرض:

ـ ثم؟

دُهش (حسن) للحظةٍ، ولكنه استطرد:

ـ أريد طبيبًا ليراه.

قاطعه الممرض:

ـ لا يوجَد أحد الآن.

صرخ (حسن) في وجهه قائلًا:

ـ كيف هذا؟ أليس هذا قسم طوارئ؟! لا بد من طبيبٍ.

صمت الممرض فتصوَّر (حسن) أنَّه يَحمل له إجابة مختلفةً.. غير أنَّه أدرك غير ذلك، لمَّا سمع صوتًا نسائيًّا قادمًا من إحدى الأروقة يقول:

ـ لماذا تصرُخ وترفع صوتك، يا هذا؟

عاد (حسن) للصراخ غير مهتم بحديثها مردِّدًا:

ـ أريد طبيبًا.. في الجامع إنسان يموت.. هل تفهمين؟!

تطلعت إليه، وببرود أجابت:

ـ أحضِره هنا.

صرخ مجددًا، وهو مُنقطع الأنفاس:

ـ أين الأطباء؟ المسعفون؟

أجابت بسرعة:

ـ يصلُّون.

رمقها (حسن) بعينين ثاقبتين تطلِقان شَرار الغضب، وأسرع يغادر المشفى، يجرّ أذيال الخيبة، والتساؤلات تملأ رأسه:

ـ لمَ كلّ هؤلاء بهذَا البُرود؟ أنَا أُحدِّثهم عن حَياة إنسان.. اللحظةُ والثَّانيةُ تُحدثُ فرقًا.. تُرى كيف هو الآن؟ وماذَا حدَث لهُ في دَقَائق غيابي؟

هز رأسه وكأنَّه يطرد عنه كل هذا اللغط، وركض سريعًا للجامع وكله أمل أنْ يكون الحال قد تبدل.. غير أنَّه لمَّا وصل أصابه المشهد بالإحباط.

وصل وهو يلهث من شدة العطش وانقطاع الأنفاس، فوجد المسكين مُلقى على حاله كما تركه ولا فارق إلا أنَّ الصلاة قد انقضت، وانتشر المصلين في أرجاء المسجد.. وحوله بدلًا من واحد ثلاثة أشخاص فقط.. سأل أحدهم عن ما استجدّ فأجابه بارتباك:

ـ لقد أتيت مع صلاة الجنازة التي هناك، ووجدت هذا الشاب مُلقى، وليس معه غير هذا العجوز.. أنا لا أراه يتنفس.

تملَّك (حسن) الغضب وصرخ:

ـ ما بِكُم أيها الناس؟ ماذا حدث؟ رجل سقط بينكم فتتركوه حتى الآن؟! ألا يوجَد طبيب؟ ألا يوجَد طبيب؟!

ذرفت عيناه الدموع لما وقَع بصره على المسكين.. أمسك بكتفه فأصابت قلب (حسن) نغزة.. فقد أحس به أصلب مما تركه بقليل.. أيقن في جوفه أنَّه مات، لكن لن يسكُت.. ذهب للإمام وقال له بصيغة الأمر وهو يصرخ:

ـ اطلب من المصلِّين أي طبيبٍ يظهر؛ لقد سقط شاب بين المصلين..

لمْ ينتظر رده.. عاد وهو يسمع صوت الإمام في المُكبر ينادي على طبيب.. عاد أدراجه حيث الملقَى على سجاد الجامع فإذا برجل طيب الهيئة يجثو على ركبتيه أمامه، ويجري له بعض الإسعافات.. استمرت لدقائق ثم رفع رأسه، ونظر لـ(حسن)، وقال في أسى:

ـ لقد مات.

كان يحدِّثه، وهو يظن (حسنًا) قريب المتوفى.

صدمة.. أجل صدمة.. جلس (حسن) على الأرض بجوار الشاب، وبدأ ينظر إليه في حسرةٍ وألم والدموع تنهمر من عينيه.. راح يحدِّث نفسه:

ـ ما هذا الذي حدث؟ كيف انتهى هذا؟ بل كيف أصبح الناس بهذا السوء؟

أخذ يتطلع مِن وراء الدموع للناس.. للوجوه.. ويتذكر كلمات الإمام في الخُطبة عن خلق الإسلام، والأخلاق التي غابت عنا.. هل حقًا باتت سرابًا؟ ما فائدة الصلاة أو القرآن إنْ لمْ تؤيدهما الأفعال؟ كيف قيَّم أولئك الناس الموقف؟ هل إتمام الصلاة كفرضٍ أهم مِن إنقاذ حياة إنسان؟ ثم أين أولئك القابعون في المشفى؟ ما فائدتهم إنْ لمْ يكونوا على أتمّ استعدادٍ لمثل هذه اللحظات؟

كانت الدموع تنهمر كما الأسئلة على رأسه وهو يحرِّك عينيه في ذهول وعدم إدراك: أحقًّا أصبحنا في غابة؟ كلٌّ يُعنَى بنفسه وكفى؟ جموع المصلين كيف لمْ يهبّوا لنداء المسكين؟ ما هذا المجتمع الذي نحيا فيه؟ أأصبح فينا الكلام هو كل شيء، ولا مجال للأفعال؟! هذا المسكين.. ماذا سيقول لربه؟ أيُشهِده على بضع من خلقه لمْ يعودوا كما خلقهم بشرًا ، تركوه ملقَى على الأرض بلا إسعافٍ؟

ربتت يدٌ على كتفه فالتفت فإذا بعمه العجوز، نظر إليه نظرة حنان، وقال له:

ـ هيّا يا بُني لنعود للدار.

أومأ (حسن) بعينيه لعمه، ونهض من مكانه، وهو يتطلع في نظرة أخيرة على الشاب الفقيد.. ثم انتبه.. فنظارته الشمسية في يده منذ رفعها من على وجهه.. ذهبت معه للمشفى، وعادت معه.. تركها بجواره، وتحرك مع عمه خارجًا من المسجد.. ولكن بأسئلةٍ، وقلب ليس كما كان.